يوسف المعمدان

• نزيه أبو عفش •

كانَ لي في قديمِ الزمانْ
صاحبٌ مخلصٌ، إسمهُ: يوسفٌ
قاطنٌ في الجبالِ، على بعدِ يومينِ عن سَهْلِنا.
كان شخصًا طويلاً طويلاً...
فكان رعاةُ الجبالِ إذا ما التقَوهُ
ينادونهُ: يوسف الشمعدانْ.

صاحبٌ ساحرٌ: ساحرٌ لا نظيرَ لهُ...
زاهدٌ، قادرٌ وقويٌّ، وصاحبُ رأيٍ سديدٍ..
يشمُّ ظلالَ الكلامِ التي في الكلامِ
ويقرأُ ما تهجسُ الطيرُ في سرِّها حين تغفو!
فكنت أحبُّ الرجوعَ إليه إذا مالَ بي طالعي
أو أَلَـمَّتْ بنفسيَ نازلةٌ من نوازلِ هذا الزمانْ.
وبما أنَّه ساحرٌ وقويٌّ ويقرأ ما في القلوبِ
فقد كنتُ أدعوه ـ ما بين نفسي ونفسي:
يوسفَ المعمدانْ.
..
..
مرةً، هكذا،
عضّني نابُ سوءٍ خفيٌّ
فصرتُ حزينًا.
قلتُ: أمضي إلى صاحبي ـ معمداني العظيمْ..
فمضيتُ إلى صاحبي في الجبالِ البعيدةِ؛
(زوّادتيَ خلف ظهري، ويسندني أملٌ..)

سرتُ:
قاسيتُ.. عانيتُ..
خفْتُ.. تجلَّدتُ..
سرتُ وسرتُ.. وتابعتُ
متُّ.. ومتُّ..
ولكنْ: وصلتْ!
....
.. فوصلتُ،
فألفيتُهُ جالسًا يتشمَّسُ فوق الصخورِ
وينعسُ تحت هواءِ الظهيرةِ
مغتبطًا برنينِ الهواءِ على لحمِ صخرته.
: «يوسفُ الحَرَذَونُ...» هتفتُ أُداعبُهُ.
هبَّ يوسفُ عن صخرةِ الشَّمس حين رآني وزغردَ:
«يا للنهارِ السعيدْ!..
أُنظروا من أتانا!»
وَ.. كأنْ جئتُ من غيبةِ الموتِ
رحّبَ بي
والتقاني بأنوارِ ضحكته وحنانِ ذراعيه.
ثمَّ تفرّسَ في جبهتي لحظتين، ليقرأ سرّي
وقوّسَ دهشةَ حاجبه.
قالَ: ماذا أرى يا صديقي الأَحبْ؟!
قلت: لكنْ.. بغيرِ عَتبْ..
وتلعثمتُ مستحيًا من تلألؤِ عينيَّ:
«إنّي حزينٌ...»

فقوَّسَ دهشتَه من جديدٍ، ولم يتكلَّمْ..

«.. وقلبي يغافلني بين حينٍ وحين فيؤلمني»

(وأشرتُ إلى حيثُ يؤلمني..).

كبرتْ دهشةُ القوسِ في وجهه.. فاستحيتُ كثيراً.

فطأطأتُ رأسي إلى تحتُ مرتبكًا وأضفتُ:

«الحياةْ!»

ـ ما بها؟!... / صاحَ مستنكراً.

ما بها بنتُ كلبِ أبيكَ المجيدةُ؟!

قلتُ: تُعذّب روحي.. وتظلمني.

وسكتُّ.

فأمسكني هكذا...

ثم راح يهدهدُ رأسي على صدرِه

مثلَ أمٍّ تهدهدُ طفلاً ألمَّ به جزعٌ.

ـ فإذنْ خُنْتَها!.. / قالَ لي.

فتنهَّدْتُ في ظلِّ نظرته:

كيف يمكن لي أن أخونَ الحياةْ؟

لستُ أعرف كيف تُخانُ؛

أنا؟!

قالَ: يا صاحبي، يا أخي..

(وعلا صوتُه حين قالَ: أخي)

أنت شابٌّ حكيمٌ

وعندكَ زوجٌ مؤدَّبةٌ وصبيّان لؤلؤتان..

فماذا تريد إذنْ بعدُ؟!

.. أُنظرْ حواليك، واقْرأ جمالَ حياتك في هذه

الأرضِ؛ أُنْظرْ إلى النورِ؛ أُنظرْ إلى الغيم سبحانهُ

كيف يَسْبح تحتَ حريرِ السماواتِ؛ أنظرْ إلى الشمسِ

كيف تَذوبُ معادنُها النورُ فوق حديد الصخورِ..

فتعرفَ كم أنتَ ذو حظوةٍ وغنيٌّ...

ومضى صاحبي يشرحُ النورَ لي، وهْو يغمضُ عينيه

مبتسمًا، كي يشمَّ شذى النورِ!

أُنظرْ.. (وراح يفسِّرُ لونَ السماواتِ والريحَ

والعطرَ في ملمسِ الريحِ...)

وانظرْ إليكَ وأنت تدبُّ على الأرضِ مغتبطًا ومعافى!

كأنْ لا ترى الأرضَ يا صاحبي؟!

لا ترى الأرضَ؟!...

أُنظرْ معي الآنَ: اللَّهُ ما أجمل الأرضَ..

ما أجملَ...

الأرضُ ملْكُكَ، لكنَّكَ الآن لستَ ترى!

صيرفيٌّ وأعمى!!

الأرضُ بيتكَ؛ فانظرْ إليها لتعرف ما أنتَ مالكُهُ

فتصيرَ سعيداً وتشفى من الـ.. ما اسمُهُ؟! وجعُ

القلب؟!..

يا للصديقِ التعيسِ.. يرى «وجعَ القلبِ» لكنَّه لا يرى

كلَّ هذا الذي يُذهبُ الـ.. «وجعَ القلبِ!»

قالَ: فها هي ذي الأرضُ، خذها.. وكُلْها.. وشُمَّ

لطافَتَها.. واشربِ النورَ عن صخرِها الوردِ...

أرضكَ عذراؤكَ الأبديَّةُ

خذْها.. وخذْها.. وخذْ أرضها كلَّها.

ثم راح يفنِّدُ لي سحرَ عذرائيَ الأبديَّة:

خضراءُ؛ منقوشةٌ بلآلئها ـ الزهرِ؛ سكرانةٌ

من خمور ينابيعها السرمديَّات؛ مملوءةً بالعصافيرِ،

والزرعِ،

والصخرِ، والماعز البربريّ ينطُّ على الصخرِ، والطيرِ

تحتُ وفَوقُ، وعطرِ السماءِ، وأمزجةِ الشعراءِ (وأكَّد

لي: الشعراء!... أتفهمُ؟..) ... فاخرجْ إلى الأرضِ

وافرحْ بها وبأشيائها وبَنيها الأعزاءِ..

أُخرجْ إلى الأرضِ واقطفْ حياتكَ عن صخرها

بعنادِ ذراعيكَ. إقطفْ حياتكَ عن صخرها هكذا...؛

فالحياةُ، صديقي، تحبُّ الذين ينالونها هكذا.. بالذراعِ

العنيدِ،

وتَنْفرُ ممّن يهابونها ويملّون صحبتها...

قالَ: إقطفْ حياتكَ.

.. واندفعَ المعمدانُ العجيبُ (المحبُّ الحياةَ..) يحدّثني عن

خفايا الحياة التي هو مالكُها؛ عن عصافير أشجارِه

ومواشي

أراضيه؛ عن قمحه وينابيعه وكنوزِ ممالكه في أعالي
البحارِ:
كذا شجرٌ وبقولٌ وفاكهةٌ
وكذا غنمٌ وذئابٌ
كذا ماعزٌ وبغالٌ تشقُّ الدروبَ ليسلكها التائهونَ..
كذا لؤلؤٌ، وهواءٌ، وشعرٌ، ونورٌ..
وأوديةٌ، وجبالٌ، وريحٌ خرافيَّةٌ..
وعطورٌ، وشدْوٌ وأَنْبذةٌ حلوةٌ
وحريرٌ...: حريرُ نساءْ...
ثم (بَعْدَ: حريرُ نساءْ..)
مالَ صوبي يوشوشني وهْو يمسحُ عن وجههِ
عسلَ الشمسِ أو ينفضُ الذهبَ ـ الشمسَ عن صدرهِ
برؤوس الأصابعِ:
لا تنسَ (وشوشني صائحًا، فأخافَ الطيورَ التي
تنقرُ الشمس فوق الصخور المحلاّة بالشمسِ)...
لا تنسَ تلك الأفانينَ ممّا يدبّرهُ الناسُ
من سحرِ ألعابهم في الخفاءْ..
(ورمى غمزةً في خفاءِ الهواءِ
فَرَقَّ زجاجُ الهواءْ..
فأضاءَ الهواءْ!..)
قلتُ: يا للسماءْ
صاحبي ملكٌ.. ويظلُّ سعيدًا؟!...

ومضى الملكُ ـ المعمدانُ الثريُّ السخيُّ يُحبِّبني
بالحياةِ وأسرارها وذخائرها الخالداتِ.. وما يلعب الناسُ
تحتَ شراشفها خفيةً...!
وأنا ساكتٌ
أتلظّى على نارِ نفسي.. وألعنُهُ خفيةً.
فجرؤتْ أخيراً وقاطعتُهُ، محرجًا من شجاعته وفداحةِ يأسي:
«كلّ هذا هراءْ
فأنا ـ يا أخي ـ رجلٌ يائسٌ معدمٌ وأُحبُ الكَسلْ
ليس تُفرحني ذي الحياةُ على الأرضِ ـ يا صاحبي
وأخي ـ ليس تفرحني.. كلُّها.»
(هكذا قلتُ ما كنتُ أرغب في قولهِ
فاستراح فؤادي قليلاً..)

.. وصديقي ـ أخي ـ لا يَملّْ
قالَ: يا للرجلْ!...
لا يحبُّ الحياةْ!!...
ثم ـ وهْو ينقّبُ عن صورتي في جبيني
ويقرأ في عتْم صوتي غوامضَ صوتي الحزينِ ـ
قالَ: فانظرْ إلى ما ترى.. فتحبُّ الذي...
قلتُ: لا أشتهي أن أرى وأُحِبَّ الذي...
قالَ: فلْتتعلَّمْ إذنْ كيف تَفهمُ ما تُنشدُ الطيرُ
قلتُ: ... وأسأمُ من عبثِ الطيرِ
أسأمُ من شدْوها ورتابةِ أفكارها
قال: والوردُ؟
ـ ما عاد يُبهجني فيهِ شيٌ
لا شذاهُ ولا بؤسُ ألوانهِ
ـ والسهولْ؟
ـ لا أُحبُّ هواءَ السهولِ
وتضجرني دَعَةُ العيشِ فيها وقُبحُ بساتينها
قال: والناسُ يا ولدي؟
رُحْ إلى الناسِ كي تتسلّى بما يلعبونَ
ويخترعونَ، وما يحلمونَ، وما يكرهون،
وما يأملونَ..
وما يفعلونَ ويروونَ...
قلتُ: وملَّ فؤادي من الناس يا صاحبي.
وانطلقتُ أَعُدُّ:
مللتُ من الصخرِ، والعشبِ، والماءِ، والوردِ،
والخضرواتِ البليدةِ، والأكلِ، والنومِ، والأغنياتِ
الحديثةِ، والشعراءِ الحديثين، والكاتالوكِ المحدَّثِ
للبحث عن صيغةِ الملكوتِ الحديثِ...
وملّتْ عيوني
من تعاقُبِ شمسِ الرعاةِ وليلِ الطغاةِ..
ومن صَلَفِ الملحدينَ

ومن صلواتِ المرائين...
ملَّ فمي ودماغي وقلبي وكفّايَ..
ملَّ شهيقي
وملَّ زفيري
وملَّ الهواءُ الذي أتنفّسهُ كلَّ يومٍ
فما عادَ يُسعدني.
ومللتُ من الحبِّ..
حبِّ النساءِ على مذهبِ الكوكاكولا المخيِّرِ
كُلّيّ مللتُ... ويوجعني كُلُّني!
ـ أوَتعرفُ يا صاحبي (قال لي وهْو يَنْفخُني
عن رؤوسِ أصابعه).. أنتَ محضُ دخانْ
ثم أردفَ: مُتْ.
قلتُ: أفْزعُ من ظلمةِ الموتِ؛ يفزعني موتُهُ.
(وتردَّدَ في جوفِ قلبي صدى قولِه «مُتْ»..
فحقدتُ عليه، وكدتُ أقول لهُ «أنت تكرهني
أيُّها اليوسفُ المعمدانْ»...)
لم أقُلها، ولكنْ..
كان يوسفُ قد سمع الصوتَ في قلبه.. فبكى!
فاستحيتُ
وعاتبتُني.
.. فصَمَتنا!.. وعانَقَني.
..
قال: فاصبرْ قليلاً!
ـ ومللتُ من الصبرِ يا صاحبي
فأعنّي على ما أنا فيه، أرجوكَ.
قالَ: فماذا تريدُ إذنْ؟!
قلتُ: لا شيءَ، لكنْ.. أعنّي.
: كيفَ «لا شيءَ» ثمَّ «أعنّي»؟!
قلتُ: لا شيءَ، لكنْ..
وأوشكتُ أُفصحُ عمَّا يعذّبني...
قلتُ: لا شيء. لا، أبدًا
لستُ أرغبُ في أيّ شيءٍ، ولكنْ...
ـ «ولكنْ!؟..»

قلْ ولا تستحِ؛ الأخُ للأخِ
قلتُ: ولكنْ...؛ فقال: ولاكنْ!...
(وتهيّأ لي أنّني صرتُ أحمرُ من خجلي!)
ثم أطلقتُ شهوةَ نفسي بلا حرجٍ واعترفتُ لهُ:
ـ ربما..
ربما كان ينقصني...
وسكتُّ قليلاً، لعلّي أرتّبُ أفكار نفسي،
.. ربما كان ينقصني يا صديقي:
صاحبٌ لا يعذّبهُ الحزنُ.. أقصدهُ حين أحزنُ؛
دربٌ صعودٌ إلى جبلٍ؛
.. وعلى جانبِ الدربِ بيتْ..:
هكذا.. مثل كوخٍ صغيرٍ
على شكلِ بيتْ.
قال: يا لكَ من رجلٍ مضحكٍ!
«صاحبٌ؛ دربُ بيتٍ؛ وبيتْ؟!..»
ذاكَ ما تَشْتهي؟.. كلُّ ما تشتهي؟!
قلتُ: ذاكَ...
ـ إذنْ، فليكنْ لك ما تشتهي.

ومضى «الساحرُ» المعمدانُ يحدّقُ في الريحِ
حتى استكانتْ فلانتْ.
ثمّ حرّكَ إصبعهُ في الهواءِ على مَهَلٍ
(ساحرٌ.. وكسولٌ!!)
... فحرّكَ إصبعهُ هكذا...
ثم حرّكها هاكذا...
ثمّ حدّق أعلى فأعلى..
ثم حرّكَ إصبعَهُ المعمدانةَ أعلى.. وأعلى..
ثم أوقفها في الهواءِ.. على قمّةِ التلِّ!
ثم استراحَ..
فكان على التلِّ:
مقبرةٌ،
وطريقٌ،
وبيتْ/ شبهُ بيتْ.

..

ـ أرأيتْ/ قال لي/

هوذا ما اشتهيتْ.

❖ ❖

..هكذا،

بعد أنْ كدتُ أيأسُ من معمدانيْ،

صار لي ما اشتهيتْ

فـ.. نهضتُ.

نهضتُ على الفور كيلا أُضيّع دربي

إلى جبلي (الوقتُ ليلٌ).. وبيتي.. ومقبرتي.

وشكرتُ له عَطْفَهُ..

وبكيتُ.

.. بكيتُ على صدرِه وعلى صدرِ نفسيَ

حتى ارتويتْ.

وعرفتُ لتوّي

أنَّ ما كان ينقصني من جميع شؤونِ حياتي:

شأنُ ميتْ/

شبهِ ميتٍ، يروق له حين يتعبُ من يأسِه

أن ينامَ على سقفِ ميتْ.

..

..

غيرَ أنْ.. لم أشأ أن أُفكّر: «يوسفُ يكرهني»..

صرتُ أعرفُ أني أنا «كارهي...»!

.. فمضيتْ.

❖ ❖

هكذا، منذُ أن عدتُ ذاك النهارْ،

صار لي:

جبلٌ، ومزارٌ (مزارٌ كبيرٌ!).. وبيتْ.

صار لي ما اشتهيتْ!!

غير أنْ... بعد ذلكَ

صرتُ أملُّ هواءَ الجبالِ

وسكنى البيوتِ الصغيرةِ.. مهجورةً في أعالي الجبالِ،

وأكثرَ: صرتُ أملُّ وأبغضُ رفقةَ أصحابيَ الميِّتينْ

(صاحبٌ لا يعذّبني حزنُهُ!...)

يسهرون بصحبةِ أشباحِهمْ!

وينامون فوق بطونِ وأثداءِ أشباحِهمْ!

وينوحون ـ من غيرِ أن يحزنوا ـ

فوق أكتافِ أشباحِهم!

و.. يُجلّونَ حكمةَ أشباحِهمْ!

ولهذا، يظلّونَ أحياءَ ـ موتى... إلى أبدِ الآبدينْ

يمضغون لعابَ تعاستِهم بهدوءِ اليتامى

ويُطلّون من فوقُ، من فوقِ سطحِ الحياةِ،

على ما مضى من غبارِ الحياةِ

ويحيونَ موتى..

وموتى.. إلى أبدِ الآبدينْ..

: لا يُعذّبهم أملٌ!!

.. ..

.. ..

هكذا.. صار عندي الكثيرُ من الموتِ

فوقُ، على جبلِ الموتِ؛

صرتُ وحيداً تماماً..

وعندي:

جبلٌ شاهقٌ

وظلامٌ ـ نُعاسٌ ـ كثيرٌ

وبيتْ...

بيتُ ميتْ!!

(أبداً.. لم أفكّر بـ: «يوسفُ يكرهني»

: صرتُ أعرف ما أشتهي..)

.. ..

.. ..

صرتُ أعرف ما أشتهي، ولهذا...

كان لا بدّ من أن أعود إلى صاحبي

معمدانِ الجبالِ البعيدةِ

أشكو إليه رسولَ الظلامِ الذي صِرْتُهُ.

فمضيتْ...
والتقاني الصديقُ كعادته
بلآلئِ بَسْمته الورد ـ بسمته السرمديَّة.
ثمّ تَفكّرَ ثانيتين، ثلاثًا، ثلاثينَ...
وهْو يحدّقُ في عتْمِ قلبي
ليقرأ ما يهجسُ الطائرُ الميْتُ في داخلي
غير أنْ.. لم يقلْ لي: «لماذا أتيتْ؟..»
(كان يبصرُني...)
.. وعلى مَهَلٍ، مهلٍ (ساحرٌ.. وحنونٌ!)
أحاطَ تعاسةَ قلبي بعطفِ ذراعيه حتى...
هدأَ السمُّ في لحمِ قلبي المريضِ
فوشوشني قلبُهُ ـ قلبُ وردته: أرأيتْ؟!
(كيف لي أن أرى؟!
بعد ماذا وماذا؟!)
ثمَّ ـ من إصبعِ المعمدانِ الكريمةِ ـ
عاد ليَ السهلُ
عادتْ نوافذُ بيتي تطلُّ على السهلِ
عادتْ سماواتهُ وعصافيرُ أشجارِهِ
وسواقي بساتينه
ومذاقُ الهواءِ الرخيمْ...
عادتِ الحلوةُ ـ الوردةُ الأمُّ
عاد الصبيّانِ.. لؤلؤتا التاجِ
عاد الملكْ/
إلى سهلِ أحلامه
ظافراً وسعيداً
ويعرفُ ما يمتلكْ

.. ورجعتُ إلى أرضيَ البورِ.. أفلحها.
ـ أوَتسمعُ يا صاحبي؟.. ـ قال لي ـ
هوذا السهلُ يضحكُ لكْ!!
فرميتُ لهاثي على صدرهِ ـ صخرةِ المعمدانْ
وبكيتُ من الشكرِ.

.. أيضًا بكيتُ، وأيضًا بكيتُ، وأيضًا...
وسأبكي إلى آخرِ العمرِ
.....
: ذلك ما كان من قصتي.

❖ ❖
❖ ❖

سَرَقَتْني الحياةُ.. فما عدتُ زرتُ أخي ـ يوسفي.
مرةً، بعد عشرين عامًا (وقد صرتُ شيخًا، فصارَ
يغافلني فرحُ القلبِ ما بين حينٍ وحينٍ).. تذكّرتُهُ.
فحنَنْتُ إلى وجههِ الوثنيّ، وعطفِ يديه، وضحكته،
وشهامةِ عينيه إذ تلمعان معطَّرتين بأبْخرَةِ الحبِّ..
قلتُ.. أناديه من جبلي؛ علَّ يَسمعُني.
صحتُ: يا معمدانَ الجبالْ
يا أخي يوسف المعمدانْ
أين أنتَ لتسمعَ صوتي، وتفرحَ بي،
وتباركَ ما قد فعلتُ لأُسعدَ هذا الزمانْ...
ثم أعليتُ صوتي.. وأعْليتُ صوتي
ليسمعني من وراءِ جبالِ الجبالْ:
أنتَ يا صاحبي وأخي ورسولي...
وظللتُ أصيحُ وأرفعُ صوتي ليسمعني
فسمعتُ صدى صيحتي...
فأفقتُ!
أفقتُ على صيحتي!

❖ ❖

فإذنْ، قد أفقتُ
فألفيتُني نائمًا في سريري
وكفّاي مضمومتانِ كبوقِ الرعاةِ..
وفي البوقِ أصداءُ صيحةِ: يا يوسف الـ...
!!...
قلتُ: ها أنذا هاهنا.. مشرقٌ ومعافى
ها هنا، في هناءةِ بيتيَ ـ مملكتي.
هذه امرأتي تتبسّمُ في سرِّ أحلامها.
ها ثيابي التي كنتُ ألقيتها أمسِ،
ها صحنُ أدويتي عند رأسي

وها الساعةُ ـ الديكُ...
ها دفتري وكتابي، ونافذتي، وصباحي: الصباحُ الجميلْ
ها العصافيرُ تزقو مثرثرةً
وتفسّرُ أحلامَها ـ أبجديَّتَها العبقريةَ ـ فوق حبالِ الغسيلْ
ها الهواءُ الخبيثُ يلاعبُ ثوبَ الفتاةِ على سطحها
فيدغدغ ـ في النومِ ـ صدرَ الفتاةْ
ها الحياةْ
تترقرقُ رنّةُ أقدامها في دروب الحياةْ...
وها الشمسُ...
ها بقعةُ الشمسِ ترقصُ فوق ستارتها الزهرِ
في الكوريدور الطويلْ
ها أنا، ملكٌ... مالكٌ:
أَلنوافذُ لي..
والعصافيرُ خلف زجاجِ النوافذِ لي..
والغيومُ التي في السماواتِ لي..
والأغاني العذابُ التي تتسرَّبُ من شرفةِ الجارِ لي..
وحياتي، وأحلامُ نفسي، وما سوف يأتي،
وما قد أُحبُّ،
وعيناي لي، وفمي، وضلوعي.. وقلبي..
وما سوف تقطفهُ خفيةً ـ من بدائعِ قلبي ـ اليدانْ؛
وإلى جانبي امرأتي، أمبراطورةُ التلِّ، تسبحُ في نومها
وتُنقِّطُ بسمةَ أحلامها في السريرِ..
فتبزغُ من نورِ أحلامها نجمتانْ
وها أنذا، فوقَ ذاكَ وذا، قانعٌ وحكيمٌ
وعندي صبيّانِ لؤلؤتانِ
وناسٌ كثيرٌ يحبونني حيثُ أمضي..
ولا شيء ينقصني بعدُ..
لا شيء ينقصني غير فنجانِ قهوتنا في الصباحِ
يعطّر نَعْسَةَ أرواحنا في صباحِ الصباحْ..؛
قلتُ ذا.. وتشمَّمتُ قهوةَ ذاكرتي
فشكرتُ الصباحْ
فابتسمتُ لهُ ولنفسي
وهنّأتُني بالذي أنا مالكُهُ.

ثمّ تمتمتُ في سرِّ نفسي
لئلا تفيق المليكَةُ من نومها:
«ما ألذّ الحياةَ!...»
ونصَّبْتُني ملكًا
ملكًا.. وسعيدًا.
: ملكٌ.. وسعيدٌ.. وأعرفُ أسرار مملكتي جيّدًا!
فمسحتُ على وجنةِ امرأتي الوردِ
حتى أضاءَ على راحتي وردُ بسمتها
فأفاقتْ وصاحتْ لتُسمعني:
«ما ألذّ الحياةْ!..»
وتمطّتْ..
كما تفعلُ الملكاتْ.

قلتُ: مالك تبتسمينَ
كأنّك خارجةٌ من سرايا الملوكِ؟!
فقالتْ:
هل تصدِّقُ!
شاهدتُ في حلمي رجلاً
رجلاً شاهقًا، ساحرًا، مشرقًا،
دمثًا.. ولذيذًا.. ويضحكُ...
يضحكُ مثل الملوكِ الـ.. ملوكْ
ويزعمُ أنَّ اسمهُ
يوسف المعمدانْ!!...
رجلٌ لا شبيهَ لهُ.
كان، وهْو يكلّمني، يتلعثم مثلَ البناتِ
فتحمرُّ وردةُ عُروتِهِ!...
وتذكّرتُ:
كان يخاطبني باسمِ «كبرى اللآلئِ»!!..
اللّهُ ما كان أجملهُ رجلاً!
: رجلٌ ماردٌ، خارقٌ ولطيفٌ.
يمدّ ذراعيه (ياللذراعين!..) مغتبطًا.. هكذا...
ويقولُ: أنا مالكُ الأرضِ.
اللّه!...

يا لبراءته ذلك الهمجيُّ الذي يدّعي أنَّه مالكُ الأرضِ!
يا لرشاقةِ أغصانه وهو يخطو على الصخرِ!
يا لوداعةِ عينيه راعي الهواءِ العظيمُ
الوسيمُ.. الكريمُ
الحكيمْ.

كان يشبهُ موسى المسيحَ.. وكانْ
حيثما سار بين شعابِ الجبالِ يغني
ويحملُ في يدهِ.. شمعدانْ.

قلتُ: أعرفهُ منذ نحوِ ثلاثينَ عامًا.. وأكثرَ.
(لم يرتفعْ قوسُ دهشتِها.. فضحكتُ!)
ضحكتُ لهُ..
ولها..
وعليها.

ثمّ ناديتُ بالبوقِ ـ بوقِ يديَّ ـ
لأُسْمِعَ ذاكَ الغريمَ الذي
كان يسكنُ في حُلمينا العجوزينِ:
يا لكَ من صاحبٍ ماكرٍ
أيُّها اليوسفُ الـ.. بهلوانْ...
ونهضتُ إلى جبلي ضاحكًا.

..
..

فنهضتُ إلى جبلي ـ جبلِ الناسِ، أبناءِ مملكتي الناسِ:
يمضون راضينَ، مستبشرين، ضعافًا، أشدّاءَ،
مبتسمينَ، ملوكًا حفاةً، ملوكًا عراةً، ملوكًا.. رعاةً،
ملوكًا.. ملوكًا..؛ ويبتسمونَ!
لهم كلُّ ما يستطيعون أن يحلموا ويحبّوا،
وتبصرُ أعينُهم مجدَهم من أعالي سقوفِ الزمانْ
نهضتُ إلى جبلي مشرقًا.. ضاحكًا.. وغنيًّا...
فما كان ينقصني غير أن أستقيمَ على عرشِ مملكتي
وأُلوّحَ لي
ولها
ولحاشيتي
وليوسفَ
بالصولجانْ.

❖ ❖

صارتِ القهوةُ الملكيَّةُ ـ مأدبةُ الحبِّ
فامتلأ البيتُ بالعطرِ
وانتعَشَتْ من فَواحِ السعادةِ روحُ المكانْ.

.. ..

فجأةً قرُعَ البابُ.
قمتُ لأفتحَ.
قامتْ معي امرأتي
ففتحنا معًا.
فشهقنا معًا.
فابتسمنا معًا..
ففتحنا الأيادي ـ القلوبَ معًا
ومضينا نرحّبُ بالزائرِ الحُلْوِ:
«يا للصباحِ السعيد..
أُنظروا من أتانا!!..»
!!...
مَنْ يُصدِّقُ؟
كان على الباب صاحبنا نفسهُ
: يوسف الشمعدانْ!!
فهتفنا معًا:
جئتَ في موعدِ القلبِ يا ساكنَ القلبِ
فلتتفضَّلْ إذنْ أيُّها الصاحبُ الأخُ
ولنشربِ القهوةَ الآنَ نحنُ الثلاثةَ
يا...
يوسفَ المعمدانْ.

❖ ❖
❖ ❖

ذاكَ، بالحقِّ والصدقِ، كانْ...

١٩ ـ ٢١ كانون الأول ٢٠٠١
دمشق